المحاضرة (٣)

****

المادة: علم اللغة ((اللسانّيات))

التاريخ: ٢٠١٩/١٠/٢١

الأستاذ المساعد الدكتور: ظافر كاظم

قسم اللغة العربية/ كلية التربية للبنات

// جامعة البصرة // *********

((اللسانيات والدرس اللغويّ العربّي))

لم تأخذ اللسانيات مكانها في الدرس اللغوي العربي بسهولة، ولم يبدأ الاهتمام بمناهجها ومباحثها ونظرياتها إلا بعد أن قطعت شوطاً كبيراً في الغرب. إذ كان الاعتقاد السائد "**أنّ مشكل المعطيات بالنسبة للغة العربية (القديمة والحديثة على حد سواء) قد حل في النحو التقليديّ، وأنّه يكفي جرد أمهات كتب النحو واللغة القديمة للاهتداء إلى الضالة المنشودة**".

وادعى بعض اللغويين العرب أنّ اللغة العربية " **لغة متميزة تنفرد بخصائص لا توجد في لغات أ خرى كثيرة ومن ثّم لايمكن وصفها بالاعتماد على النظريات الغربية التي بنيت لوصف لغات أوربية** ".

وسجل أكثر من باحثٍ عربّي البداية المتعثرة للسانيات قبل أن تتضافر عوامل عدة تساعد على انبعاثها وتطورها كارسال البعثات إلى الجامعات الغربية، وكتابة الطلاب العرب أطروحات ودراسات في جامعات غربية، وإنشاء كراسي خاصة بهذا العلم في الجامعات العربية فضلاً عن تنامي حركة الترجمة العربية للمؤلفات الغربية المتعلقة بالألسنية العامة. ومن أبرز المؤلفات التي تذكر في هذه المرحلة **(الأصوات اللغوّية)** لإبراهيم انيس ١٩٤٧م ، وكتابا تمام حسان **(مناهج البحث في اللغة)** عام ١٩٥٥م، و**(اللغة بين المعيارية والوصفية)** عام ١٩٥٧م. إذ تعد هذه الكتب من المحاولات الرائدة في البحث اللساني.

وبعد أن كشف الاطلاع على الجهود اللغوية الغربية آفاقاً جديدة في النظرة إلى اللغة العربية وأدرك كثير من الدارسين والباحثين العرب أنّ اللغة العربية " بصفتها **(لغة)** تنتمي إلى مجموعة اللغات الطبيعية وتشترك معها في عدد من الخصائص **(الصوتية والتركيبية والدلالية)**، وتضبطها قيود ومبادئ تضبط غيرها من اللغات. وبصفتها **(عربية)** تختص بمجموعة من الخصائص التي لا توجد في كل اللغات، وإنما توجد في بعض اللغات. وكونها **(عربّية)** لا يعني أّنها تنفرد بخصائص لا توجد في أية لغة من اللغات، بل لا نكاد نجد ظاهرة في اللغة العربية إلا ونجد لها مثيلاً في لغة أو لغاتٍ أخرى، هندأوربية كانت أو غير هندأوربية " شهدت أقطار عربية عدة صحوة لغوية جديدة وأصبحت بعض الدول العربية تحمل مشعل الريادة في هذا المجال مثل المغرب وتونس.

ولم يبدأ الاهتمام فعلياً باللسانّيات ومناهجها ونظرياتها المختلفة في الثقافة العربية إلا في بداية السبعينيات من القرن العشرين بعد أن ضاعت ثلاث فرص كبرى للتعامل معها بإيجابية هي: النهضة العربية الحديثة من القرن الثامن عشر إلى مطلع القرن العشرين، وإنشاء الجامعات العربية، واهتمام الباحثين المستشرقين المتزايد باللغة العربية ومنهم من

استقدمتهم الجامعات كالجامعة المصرية لإلقاء محاضرات في هذا العلم الحديث و بيان إمكانية دراسة العربية بناء على سبله ومناهجه.

فانحسرت نظرة الريبة عن هذا النوع من الدراسات بعد أن تأكد لكثير من الباحثين أنّ (**اللسانيات**) تحمل من السمات المميزة ما يجعلها "**علماً متخصصاً أو أقرب إلى العلم المتخصص** ". ولم تعد في نظر الكثيرين كما كانت في السابق "**علماً كمالياً او ترفاً فكريا** ". ولأنها – أي اللسانّيات – علم حديث نسبياً في الوسط العربي كانت عرضة لكثير من الأخطاء فيما يتعلق بمفهومها وكيفية تطبيق مناهجها. فقد استعمل كثير من الباحثين العرب مصطلح **(اللسانيات)** في سياق الدراسة اللغوية العامة من دون أن يفرق بين مرحلتين متمايزتين: مرحلة النحو التقليدي: **TRADITIONAL GRAMMAR**، ومرحلة الدراسات اللسانّية: **LINGUISTICS** التي تختلف جذرياً عن الدراسة الأولى في طبيعة أسسها ومناهجها وكيفية تناولها للغة. وجمع بعض الباحثين بين المفهومين خطأً كما في قولهم **(اللسانيات التقليدية)** التي تمثل عبارة متناقضة تماماً، وانطلاقاً من هذا المبدأ **(التعميم)** لم يجد بعض الباحثين العرب مشكلة في إطلاق لقب **(اللسانّي)** على اللغويين القدماء كقول بعضهم عن سيبويه مثلاً **(إمام اللسانّيات العربية)**، واستعمال التسمية نفسها في الإحالة على أعمال اللغويين العرب مثل أبي علي الفارسّي وابن جنّي والجرجانّي. ومن الباحثين من استعمل مصطلح **(النظرية اللسانّية)** في دراسته للفكر اللغويّ عند بعض علمائنا القدماء، مع كون مباحثه تمثل مجموعة من الأفكار اللغوية المتفرقة التي لايمكن أن تجمع – مع أهميتها – تحت عنوان **(نظرية)** .

ولاشك في أنّ هذا يسبب الإرباك ويبعدنا كثيراً عن تحري الدقة العلمية التي تمثل أهم أهداف اللسانّيات والدراسة الحديثة للغة.

وعلى ما يبدو أنّ حداثة هذا العلم من جهة، وعدم استعمال مصطلح **(اللسانيات)** بمفهومه الصحيح من جهة أخرى، هما سبب الخلط الذي وقع بين دراستين مختلفتين هما:

اللسانيات **(علم اللغة)، و(فقه اللغة)**. إذ اعتقد بعض الدارسين العرب أنّ المقصود بهذه المسميات هو علم واحد، ومنهم من رجح تسمية **(فقه اللغة)** على التسميات الأخرى لأّنه الاسم الذي أطلقه العرب، ومنهم من ذهب إلى أنّ كلا التسميتين تفي بالغرض والمقصود.

والحق أنّ هذين العلمين يتميز أحدهما عن الآخر وإن وجدت بينهما نقاط مشتركة و" **خدمات متبادلة يقدمها كل منهما للآخر**"، ووجود بعض القواسم المشتركة بين الدراستين لا يعني بالضرورة التطابق المطلق بينهما " فمادة فقه اللغة وعلم اللسان واحدة هي **(الظاهرة اللغوية)** لكن المنهج بينهما مختلف بل متقابل ،فكان لزاماً – وقد اتحدت المادة وافترقت المناهج – أن تتباين المواضيع وتتخالف التصنيفات فيفترق المضمون المعرفي وتتنوع النتائج ".

وأهم الفروق بين الاثنين أنّ فقه اللغة يخص بالدراسة لغة معينة من جوانب مختلفة ومستويات متعددة. في حين لا تعنى **(اللسانيات)** بخصوصية كل لغة، وهدفها هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، لذا فهي تحاول أن تصل إلى فهم الحقائق والخصائص التي تجمع بين اللغات الإنسانية كلها في إطار واحد. وثمة فرق كبير " بين دراسة لغات مفردة مثل الألمانية أو الإنكليزية أو اليابانية أو العربية أو اللهجات في لغات مفردة أيضاً **(علم اللهجات)** وبين دراسة ظاهرة اللغة بوجه عام". ومما يجدر ذكره أنّ مصطلح **(فقه اللغة)** وإن كان عربياً في الأصل وحملت هذا الاسم بعض المؤلفات العربية القديمة مثل **(الصاحبّي في فقه اللغة)** لابن فارس، و**(فقه اللغة واسرار العربية)** للثعالبّي. إلا أّنه لم يكن شاملاً لجميع الجوانب التي تدرس تحت هذا المسمى الآن بعد أن أصبح علماً واضحاً يدرس في الجامعات والمؤسسات العلمية .

وليس هذا الخلط بين هاتين الدراستين المختلفتين وعدم اتضاح المقصود بالمصطلح بالأمر الغريب مع دراسة جديدة تفرض نفسها في غير محيطها الأول، ولاسيما إذا أخذنا

بعين الاعتبار أنّ مثل هذا اللّبس قد عانى منه الدرس اللغويّ الغربّي عندما شقت اللسانّيات طريقها لأول مرة هناك في خضم الدراسات اللغوية السائدة، كما حدث في ألمانيا في القرن التاسع عشر، مما جعل اللغويين يحرصون على التفريق بينهما على نحوٍ مما فعله **ماريوباي و بونتنج .**

وقد كان اللبس الذي وقع فيه غير واحد من الباحثين العرب، والخلط بين مفهومي **(فقه اللغة)** و**(علم اللغة)** سبباً في تفضيل كثيرٍ من الباحثين مصطلح **(اللسانّيات)** على مصطلح **(علم اللغة)** وإن كان الأول يبدو أقرب إلى المصطلح الانكليزي **LINGUISTICS** تجنباً لإشكال تداخل المفهومين لتقارب اسميهما. ومن هؤلاء الباحثين ريمون طحان وأنيس فريحة، وغيرهم في لبنان والجزائر وتونس والمغرب . وقد أصبحت هذه التسمية أكثر تداولاً في السبعينيات ولاسيما بعد صدور **(مجلة اللسانيات)** في مدينة الجزائر، وتشبث كثير من الدارسين والمترجمين به، والإتفاق في الدورة الرابعة للسانيات سنة ١٩٧٨م على استعمال مصطلح اللسانيات والتخلي عن غيره من المصطلحات التي قد تثير الغموض والالتباس .

إلا أنّ هذا لم يمنع عدداً غير قليل من الباحثين والدارسين من الاستمرار في إطلاق تسمية **(علم اللغة)، وحتى (فقه اللغة)** في بعض الأحيان على هذا العلم ولاسيما في مصر وسوريا والعراق دون مراعاة للعواقب النظرية والمنهجية المترتبة على ذلك .

ومهما يكن أمر هذه الثغرات والأخطاء فإنّ الفوائد التي حفلت بها اللغة العربية وجنت ثمارها من **(اللسانيات)** ودراستها كثيرة ومتنوعة، أسهمت في تسليط الضوء على جوانبها المختلفة، وفي تعديل بعض المفاهيم الخاصة بها وتصحيح أخرى . فقد أدى تطبيق المناهج اللسانية على اللغة العربية إلى الكشف عن حقائق ذات قيمة كبيرة كمعرفة أصول

بعض الكلمات وكيفية انتقالها من لغة ساميّة إلى أخرى وكيفية دخولها إلى العربية، ومدى الفائدة التي يمكن أن تعود بها مقارنة اللغات على دراسة اللغة وأدت إلى إعادة النظر في كثير من الآراء والمعتقدات اللغوية السائدة ، وأسهمت في الوصول إلى آراء جديدة أكثر علمية ودقة من بعض الآراء القديمة.

وسعى الباحثون العرب إلى الإفادة من النقد الذي وجهته اللسانيات للنحو التقليدي الغربي للكشف عن الأخطاء المماثلة لها في النحو العربّي ومحاولة التخلص منها بعد أن اعترف الباحثون بوجود كثيرٍ من الأخطاء المنهجية وذهب بعضهم مثل د. عبدة الراجحي إلى أنّ تسمية **النحو التقليدي (TRADITIONAL GRAMMAR)** تصدق على النحو العربي أيضاً لأّنه " **يتميز بما تتميز به الأنحاء التقليدية في كثير من اللغات**". وسعى الباحثون من خلال اللسانيات إلى تخليص الدرس اللغويّ العربّي مما علق به من سلبيات وإقامته على أسس علمية صحيحة من أهم سماتها عدم دراسة اللغة "**بالارتباط مع أمور أخرى، ومن وجهات نظر العلوم الاخرى** ".

وماتزال اللسانّيات وبحوثها المتشعبة الآخذة بالنمو والتطور على نحوٍ يثير الدهشة تمد الدرس اللغوي العربي بما يزيده غنًى ويعزز من إمكاناته في دراسة اللغة وفحص جوانبها المتعددة على نحو أكثر شمولية ودقة. ولا غنى لأي باحث لغويّ عربّي في عصرنا الحاضر عن الإطلاع على أهم نظرياتها ومناهجها، إن لم يكن ذلك اعترافاً باهميتها، وتجنباً للقصور المترتب على إهمالها فللإستئناس بما قدمته من نتائج بالغة الأهمية في مجال دراسة اللغة البشرية اياً كان نوعها أو صنفها.

<u>أبرز مصادر المحاضرة:</u>

- أسس علم اللغة: ماريوباي
- الأسلوبية والأسلوب: د. عبد السلام المسديّ.
- دراسات في فقه اللغة: د. محمد مبارك.
- الجملة العربية في ضوء الدراسات اللسانّية: د. ظافر كاظم.
- علم اللغة العام: فرديناند دي سوسير.
- فصول في فقه اللغة: د. صبحي صالح.
- اللسانيات في الثقافة العربية حفريات النشأة والتكوين: د. مصطفى غلفان.
- اللسانّيات واللغة العربّية: د. عبد القادر الفاسّي الفهريّ.
- اللغة العربية معناها ومبناها: د. تمام حسان.
- مدخل إلى علم اللغة: كارل بونتنج.
- مدخل إلى علم اللغة: د. رمضان عبد التواب.
- مناهج البحث اللغويّ بين التراث والمعاصرة: د. نعمة رحيم العزاوي.
- النحو العربّي والدرس الحديث: د. عبده الراجحّي.